

أجيال المستقبل وتبعات العولمة في فلسطين

د. هشام فرارحة

ما دام كل شيء سيفاً ذا حدين، فإن حد العولمة القاتل أصبح يفتك بأجيال المستقبل عندنا هنا في فلسطين بلا هوادة . وإن ما كان من الناحية النظرية بالإمكان تجيير العديد من مضامين العولمة وافرازاتها من أجل الاستزادة بالمعرفة البناءة الهادفة، فإننا لا نكاد نستفيق في أي يوم من الأيام حتى نسمع عن كارثة اجتماعية هنا أو هناك. ودون الوقوع في شرك رسم صورة قاتمة مرعبة تبعث المخاوف وتثير القلق العام، وأيضاً دون الانجرار وراء اختلاط الحقائق بالشائعات، فإنه من منطلق الشعور بالمسؤولية يجدر القول إن المجتمع الفلسطيني أصبح قاب قوسين أو أدنى من أن يقع بين فكي كماشة مجارة "التطور" و"العصرنة" دونما كوابح.

فمن منا يستطيع أن يتجاهل انعكاسات فلتان الشارع سلوكيا في مختلف نواحي الحياة! فعدا فوضى حركة السير ونزوع الكثيرين لأخذ القانون بأيديهم وتفشي ظاهرة "الأنا" بشكل لافت، فإن الشعور بالرهبة من اتساع رقعة التعامل بالمخدرات وتزايد حالات ما يسمى بالزواج العرفي في بعض مؤسساتنا التعليمية أصبح حديث الجميع صباح مساء، بحيث توشك الحقيقية أن تضحى الضحية الأولى لما يتم تداوله في أوساط المجتمع.

ونتيجة لهول التحديات الجسام، بدأ الفلسطيني يتساءل، وبمرارة، إن ما كان الواقع المحيط بنا واقعا فلسطينيا أم واقعا أشبه ما يكون بما يشهده المجتمع الأميركي، على سبيل المثال، من انهيار للأسرة وارتفاع ملحوظ لنسب الجريمة بمختلف أشكالها . وقد يكون من أهم بواعث القلق هو أن مجتمعنا الفلسطيني يعتبر صغير الحجم إذا ما قورن بمئات الملايين من الناس الذين يقطنون الولايات المتحدة، حيث حالة هنا أو هناك في ذلك البلد ليس كافية لزعزعة البنيان الاجتماعي كما هو الحال عندنا، حيث مجتمعنا اعتاد على أن يكون متراسا ومحكوما بمنظومة قيمية ومجموعة من المثل أهله عبر السنين ليصمد في وجه أعتى محتل عرفته البشرية.

وما دامت الصدفة والطواهر الاجتماعية لا تلتقيان، فإنه ليس بوسع المرء الا ان يستنتج أن بروز ظاهرة الزواج العرفي يعتبر تدهورا خطيرا قد يعصف بالكثير من إنجازاتنا على مختلف الصعد.

ولربما الأهم في هذا السياق هو ضرورة النظر بعين ثاقبة الى ذلك الخبر الذي تناقلته مختلف وكالات الأنباء، والذي مفاده اقدام أب على قتل ابنته الشابة تحت ذريعة حماية شرف العائلة بعد الادعاء باكتشافه أنها متزوجة عرفيا. وما أن شاع خبر تلك الفعلة الفادحة، حتى بدأت تتضارب الأخبار حول وجود ع حالات كثيرة من الزواج العرفي. ان هذا يدق ناقوس الخطر لجميع الأسر والجهات التربوية والمعنية الأخرى وللمجتمع كافة. فأين كل اسرة من أبنائها وبناتها وسلوكياتهم؟! وأين المدرء والمشرفون التربويون في المدارس ومديريات التربية والتعليم من هذا كله. ومن يا ترى يقف وراء هذه الانهيارات الاجتماعية، بالجملة، حيث لا يعقل أن ترتب عدة حالات من الزواج العرفي لفتيات لم يكملن دراستهن بدون "هندسة قانونية ونفسية" مزعومة، إن صحت الادعاءات؟! ومن هي تلك الجهة المدسوسة التي تعمل بأبشع الأساليب على انتهاك عذرية مجتمعنا وإسقاط العديدين والعديدات من أبناء وبنات أجيال المستقبل في بلدنا؟! ولماذا هذا الترافق بين شيوع الحديث عن حالات الزواج العرفي والحمل المبكر بدون

زواج؟! وما هو القادم بعد هذا كله؟! وهل علينا ان نترث حتى نستفيق في صبيحة يوم ونجد طلابا ومعلمين يقتلون بالرصاص من قبل طلاب آخرين في مدارسنا، تماما على شاكلة ما يتكرر حدوثه في بعض مدارس الولايات المتحدة، حتى عندها فقط نفكر في أن نتحرك؟!

إن أكثر الخبراء عمقا في التحليل يجمعون على أن الولايات المتحدة لا يمكن هزيمتها عسكريا على أرض المعركة، وذلك بحكم ما تملكه من ترسانات عسكرية ضخمة. ولكنهم أيضا يكادون يجمعون على ما يتعرض له المجتمع الأميركي من انهيارات أسرية وسلوكية ومرضية بمختلف أنواعها يشكل أكبر المخاطر على قدرة الولايات المتحدة على الاستمرارية كقوة عظمى في العالم. وهؤلاء الخبراء الاجتماعيون والنفسيون والتربويون بدأوا يعدون الدراسات التي تحسد المجتمعات العربية على تماسك اسريتها، وأخذوا يدعون المجتمع الأميركي الى تبني أنماط اجتماعية سلوكية قريبة من الطابع العربي، وذلك بهدف التخلص مما يحيق بالمجتمع من آفات.

بالتأكيد، إن فلسطين التي تزرع تحت الاحتلال الإسرائيلي لم تكن تمتلك من أدوات قوتها سوى منظومة قيمية ومثلية مكنتها من مواجهة أعتى التحديات على مدى السنين. وإن المجتمع الفلسطيني اذا ما فتح ذراعيه عارية لرياح العولمة دونما ضوابط، قد يصبح هو وجميع مكوناته مجرد حفنة تتطايرها العواصف بما تحمله من برامج بعض الفضائيات التي نجحت في أن تصبغ العقول والقلوب أكثر من معظم مقومات التعبئة الاجتماعية الأخرى.

صحيح أن الضائقة الاقتصادية التي يمر بها مجتمعنا تقود الى خلخلة ملموسة في جميع جوانب حياته. وقد يكون عزوف الكثيرين من الشباب عن الزواج، كما نعهده، نتيجة لانعكاسات هذه الضائقة، وذلك بسبب عدم أقامة المجتمع لنفسه اقتصاديا مع متطلبات بناء الأسرة. وفي ظل ذلك كله، قد يحاول البعض من الشباب والشابات أن يجد ضالته من خلال ما يعتقد أنه مخرج من المأزق والإحباطات العديدة التي يمرون بها، وذلك عن طريق الزواج العرفي.

ولكن المسؤولية تقع على الأسرة في أن تتقي الله في بناتها، حيث الحل الأمثل يكمن في الإرشاد والرعاية، لا في القتل الذي حرم الله الا بالحق، ليس الخلاص في حرمان بناتنا من تعليمهن، كما يتهدد لبعض الآباء والأمهات، وتاما كما يريدنا خصومنا أن نفعل. إن الجهل والجهالة لا محالة يقودان الى تبعات أخطر مما يتخوف منه أولياء الأمور الآن. وإن كانت الأسرة هي وحدة البناء الأولى في المجتمع، فإن ما يحدث من خلخلة لا يعفي الإداريين التربويين في وزارة التربية والتعليم ومديرياتها والقائمين عليها من مسؤولياتهم الهامة في توعية أجيال المستقبل بخصوص ما يتعرض له بعضهم من استغلال لبراءتهم وعدم درايتهم بما قد يترتب على إبرامهم عقودا قانونية وهم قاصرون أو قاصرات. وبالتأكيد، فإن مؤسسات التعليم العالي، خاصة تلك التي تعنى بالطالبات، وكذلك السياسيين ورجال الدين والمؤسسات غير الحكومية عندنا مطالبون بأن يجعلوا من أولوية المحافظة على سلامة أجيال المستقبل في مجتمعنا، نفسيا وجسديا، همهم الرئيس.

إن التعمية على هذا الأمر ومحاولة مجانيته وإفتراض أنه غير موجود، لا شك تفضي بعواقب أكثر وخامة مما قد نستطيع احتواءه في المستقبل القريب.